المركز القومي للبحوث والدراسات العلمية
The national center for research
and scientific studies

ورقة بعنوان:

وَهْـــــمُ المَعْرِفَـــــةِ

والتحذير من سوء استخدام مصادر المعلومات

الدكتور/ جمعة عبد المجيد علي

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله

يعتقد كثير من الناس أن ما يُعرف بـ"عصر التنوير Enlightenment" قدانتهى، وهو ما يطلق عليه علميًّا اسم "عصر نهاية التنوير (The age of Unenlightenment) .

وإن كان أغلب الباحثين قد رأوا أن عصر التنوير قد بدأ في القرن الثامن عشر، على يد بعض الفلاسفة أمثال: جون تولاند (ت 1722)، وكريستيان وولف (ت 1754)، وغيرهم من الذين تأثروا بمن سبقهم من أصحاب المذهب العقلاني أو التنويري، من أمثال: جونلوك(ت 1704)، وبيير بايل (ت 1706)، وريتشارد سيمون(ت 1712)، وغيرهم، إلا أنني أعتقد أن عصر التنوير هذا قد بدأ بعد انتهاء العصور المظلمة في أوروبا، والقضاء على حكم الكنيسة وسيطرة الدين على مناحي الحياة العامة، وذلك بظهور القس مارتن لوثر(ت 1546)، وانشقاقه عن الكنيسة الكاثوليكية باستحداثه للكنيسة البروتستانتية، وصعود الطبقة الوسطى، أو ما تُسمى بطبقة المثقفين في أوروبا، التي اتخذت من أفكار لوثر منهجًا لها، وما ظهور الماسونية أو حركة البنائين الأحرار، في بداية القرن الثامن عشر، حوالي سنة 1723، إلا خير مثال على ذلك، ويرى أغلب الباحثين أن هذا العصر قد انتهى مع بداية القرن التاسع عشر.

والتنويرمصطلحظاهرهفيهالخيروالعلموالمعرفةوفيباطنهكثيرٌمنالأفكارالهدَّامةالتي وُظِّفتْ لهدم الدين والأخلاق والفطرة،فمنها الأفكار الصحيحة ومنها الفاسدة.

ما تقدم من توطئة مرتبط ارتباطًا وثيقًا بفوضى المعرفة التي نعيشها في عصرنا هذا، الذي بدأ قبل عقود قليلة من الزمن، فما نشهده اليوم هو امتداد لذلك العصر الذي تغيرت فيه مفاهيم كثيرة ومعارف جمة، حتى أصبحت فوضى المعرفة فيه كالفوضى في عصرنا هذا، وذلك بسبب تأثيرات وسائل التواصل الاجتماعي على السياسة والمجتمعات، فقد ظهرت حالة الوهم المعرفي لدى غالبية من الناس، فيعتقدون أنهم يعرفون كل شيء، معتمدين في ذلك على السؤال: لماذا لا نفكر بمفردنا؟.

وحالة وهم المعرفة قامت بتغذيتها شبكة الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي، وهو ما يتنافى مع التقسيم الإدراكي للعمل(Cognitive Division of Labor) ، وتوزيع معرفة الأفراد بين نطاقات مختلفة.، وهو ما يُعرف بالاختصاص أو الخبرة.

وتسببت وسائل التواصل الاجتماعي في التشكيك في جدوى الخبرة ودور الخبراء في المجتمع، وهو ما أكده الكاتب "توم نيكولاسTom Nichols"، في كتابه "موت الخبرة The Death of Expertise: الحملة ضد المعرفة العميقة ولماذا هي مهمة؟"، فالتكنولوجيا قد شجعت الأفراد على الخلط بين "الوصول للمعلومات" و"المعرفة"، وترتب على ذلك العداء للخبراء والنُخب والتفكير العقلاني، ويصف نيكولاس هذه الحالة بقوله: "إن النظام التعليمي بات يعامل المدرسين كمحترفي تقديم خدمات وليسوا كأفراد يعرفون أكثر من طلابهم، والصحفيون يتم دفعهم لتقديم ما يريده الجمهور وليس ما ينبغي أن يعرفوه"، وهو ما ترتب عليه تآكل الحدود الفاصلة بين الحقيقة والكذب وانتشار الأخبار الكاذبة (Fake News) .

ومن خلال الاطلاع على عديد المقالات والمنشورات وأوراق البحث، اتضح انجرار أصحابها خلف هذا الوهم المعرفي، بإساءتهم في استخدام مصادر المعلومات والمعرفة؛ فيقومون بنقل المعلومة دون إجراء التقييم اللازم لها، أو يقومون بالتصرف في نص المعلومة ببتر جزء مهم منها، أو حذف مصدرها، أو إعادة صياغتها بطريقة تخل بأصل النص، وهو ما تسبب في فوضى المعرفة التي نشهدها في عصرنا هذا.

وحتى نضع النقاط على الحروف، فإننا نوضح الآتي:

- إن المصادر العلنية للمعلومات بمختلف أنواعها المرئية والمسموعة والمكتوبة تمثل ما نسبته 90% من المعلومات لدى هيئات المعلومات في العالم، وكذلك المؤسسات العامة والخاصة والشركات والمنظمات؛ فهي تقوم بمتابعة ما يُعرض على القنوات الفضائية، وما تنشره المواقع الصحافية والإعلامية، وما تنشره مواقع التواصل الاجتماعي وغيرها، بغية توفير المعلومة لتوظيفها فيما يخدم مصالحها.

- غير أن عملية جمع المعلومات من هذه المصادر ليست بالعملية الهينة السهلة كما يعتقد أصحاب الوهم المعرفي؛ فهي تمرُّ بعملية طويلة ومعقدة، تسمى في علم المعلومات بـ"تدوير المعلومة"، تبدأ بالحصول على المعلومة سواء كانت وافية أو ناقصة، صحيحة أو كاذبة، ثم تصنيفها، ثم تقييمها، ثم تأكيدها أو نفيها من مصادر أخرى، ثم تحليلها، ثم توظيفها أو وضعها في قالب واضح يسمى التقرير أو المذكرة أو ورقة البحث،مشفوعًا برأي الخبير أو الخبراء المختصين وتوصياتهم؛ لتُرفع إلى صانع القرار في المؤسسة لاتخاذ القرار المناسب حيالها، ثم تبدأ الرحلة من جديد بمتابعة الحد الذي وصلت إليه المعلومة، ومدى تنفيذ التوصيات بشأنها.
- وإذا سلطنا الضوء على أهم مرحلة من مراحل تدوير المعلومة وهي مرحلة التقييم فإننا نجدها تأخذ عدة مناحٍ منها: تقييم كاتب المعلومة أو مقدمها؛ بمعرفة توجهه وانتمائه، ومعرفة مستواه العلمي والثقافي، ومعرفة البيئة التي نشأ فيها، ومعرفة مثله الأعلى، ومعرفة دوافعه لنشر المعلومة، ... إلى غير ذلك، ثم تقييم الموقع أو الوسيلة التي قامت بالنشر، ومعرفة القائمين عليها، ومصادر تمويلها ودعمها، ومنهجها في النشر، والضوابط التي تتخذها في نشر المعلومات ... إلى غير ذلك، ثم تقييم نص المعلومة بمعرفة هل هذا النص للكاتب فعلا أم أنه نسخه ونقله، وهل هذا النص يقدم المعلومة بلغة واضحة وسلسة ومفهومة، أم أنه استخدم الغموض والإيحاء، ومعرفة من المخاطَب من خلال النص، فهل هو يخاطب عامة الناس أو هو يخاطب شريحة معينة، أو يخاطب المسؤولين ... إلى غير ذلك، ثم تقييم المعلومة هل هي مطابقة للواقع أو قريبة منه، هل هي قديمة أو حديثة، ومن خلال خبرة المختص يضع لها نسبة من المصداقية.

وحتى نحصن أنفسنا من هذا الوهم المعرفي علينا الالتزام بهذه القواعد:

- تُعدُّ الكُتب من أوثق مصادر المعلومات وأوثقها، فمن أراد أن يبحث فليبحث في الكتب؛ ذلك أن مؤلفي الكتب ـ في غالبهم ـ يعتمدون شروط الكتابة والبحث العلمي، التي أهمها الموضوعية، بأن يتجرد الإنسان من أهوائه واتجاهاته ويناقش القضايا موضوعيًّا، كما إن مؤلفي الكتب لا يخفون

أسماءهم، ولا يخفون اسم دار النشر التي نشرت أعمالهم، ولا يخفون المصادر التي استقوا منها معلوماتهم، أو تاريخ نشر أعمالهم، إلى غير ذلك من الضوابط التي يلتزمون بها في الغالب.

- عدم نقل أي معلومات كانت "دينية أم سياسية أم اجتماعية أم اقتصادية أم طبية"، إلا إذا تحققنا من صحتها، وعرفنا مدى فائدتها لمن سيتلقونها؛ فكثير من المعلومات الصحيحة الوافية قد تضر بالمتلقي ولا تنفعه؛ فلو نقلنا معلومة لأحد المرضى مثلا، وقلنا له: إن الطبيب قال: إن مرضك خطير ويستحيل الشفاء منه، وربما لن تعيش أكثر من سنة واحدة، فإننا في هذه الحالة نكون قد قضينا على هذا المريض خلال أشهر أو ربما أيام، وكذلك الحال إذا نشرنا معلومات عن كيفية الانتحار مثلا وطرقه وأدواته، فإننا لا نأمن تلقي المُرْهَقين ممن يعانون من ضيق الحياة، فيطبقون ما نشرناه، وبالتالي نكون قد ساهمنا في إزهاق الأرواح، فهذا ضرر المعلومات الصحيحة فكيف بالمعلومات غير الصحيحة التي يكون ضررها أكبر بلا شك، فمثلا نجد كثيرًا من المنشورات الدينية التي تحوي أحاديث منسوبة للرسول صلى الله عليه وسلم، وهي أحاديث غير صحيحة ولكن يعجب أصحاب الوهم المعرفي بلفظها فيقومون بنشرها بحسن نية أو بسوئها، وتكون آثارها كارثية على المتلقين في عقيدتهم وعباداتهم.
- إن كان ناشر المعلومة مضطرًا لنشرها، وهو لم يقم بتقويمها، فيجب عليه أن ينشرها متوفرة على بيانات النشر: اسم المصدر، اسم الناشر أو الكاتب، تاريخ النشر، ولا يكتفِ بكتابة كلمة "منقول" في بداية المنشور أو نهايته، كما يفعل كثيرون، حتى تبرأ ذمته أم الله وأمام الناس.
- كثيرٌ من الناس ينقلون المصطلحات التي أطلقها غيرهم دون التدبر فيها، فمن هذه المصطلحات ما يخدش الحياء، ومنها ما يخدش الدين، ومنها ومنها، فقد مرَّ بنا منذ أيام إطلاق أسماء الأنبياء على الأعاصير والعواصف المدمرة، "دانيال وإلياس" وغيرها، ورأينا أغلب الكتاب والإعلاميين والباحثين وغيرهم، قد انجروا وراء هذه التسميات، واستخدموها كما هي دون التفكر فيها، فعلى الكتاب أن يخالفوا هذه المصطلحات إن كانت تمس العقيدة الدينية أو السياسية وغيرها، ولا ضير في ذلك؛ فقد نجد أكثر من اسم لمسى واحد، فنجد اسم الخليج العربي واسم الخليج الفارسي لنفس المسمى؛ فالعرب يسمونه الخليج العربي والفرس يسمونه الخليج الفارسي، ونجد اسم كوسوفا وكوسوفو لنفس المسمى؛

فالمسلمون يسمونها كوسوفا بمد الفاء بالألف وغيرهم يسمونها كوسوفو بمد الفاء بالواو، ونجد اسم الأحواز والأهواز لنفس المسمى؛ فالعرب يسمونه إقليم الأحواز والفرس يسمونه الأهواز، وكذلك نجد اسم القدس وأورشليم لنفس المسمى على اختلاف بين المسلمين واليهود.

والله من وراء القصد

الدكتور/ جمعة عبد المجيد علي